الفصل الثاني: النبوة في الإسلام

لقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد وكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب أو بنسب من الأنساب ، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبى أنه ليس بشرا كسائر البشر وأنه له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء . لذا كانت مسألة أنه لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية مسألة تحتاج إلى توضيح وحسم ، ولذا نجد توكيد هذا التنبيه بأنه لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية متواترا مكررا في آيات القرآن الكريم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في سورة الكهف من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلى أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف ١١٠) وما جاء في سورة فصلت من قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلى أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة فصلت ٦) .

وفى تخير كلمة مثلكم معنى مقصود به التسويق المطلق والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشر بحال من الأحوال بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى . من قوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (سورة الشورى ٤٨) .

وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمة وحدود رسالته التى كلف بها وليس له أن يعيدها ، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها بل وكأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة فجاء في سورة ق: قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (سورة ق ٤٥) من هذا القبيل أو أصرح ما ورد من قوله تبارك وتعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (سورة الغاشية ٢١ - ٢٢) .

رسول بشر ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه . . وأسوة للبشرية كبشر مثلهم ولا زيادة . . وتوكيد القيمة البشرية يحددها الرسول ليس بلفظ الآيات فحسب بل معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها وتاريخ الرسالة كله أن رسول الإسلام محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أول رسول بعث إلى الإنسانية جمعاء لا إلى قوم بعينهم أو جنس بعينه أو أمة بعينها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ ٢٨) .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء ١٠٧) وقد إنبرى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الناس لدينه ورسالته الخاتمة بمعجزة عقلية خالدة على مرالزمان وحتى قيام الساعة هى القرآن الكريم فكانت أعظم برهان للدلالة على نبوته وصدق رسالته - سواء لمن عاصروه وشاهدوا مع هذه المعجزة الخالدة معجزات وخوارق حسية أخرى كتكثير الطعام وجلب الماء ونبعه من بين أصابعه . . . إلخ كانت تمليها الضرورة القصوى مثل إنقاذ جيشه وأتباعه من الهلاك في تلك البيئة الصحراوية القاسية . . إلخ أو أتباعه على مر الأجيال والعصور الذين لم يشاهدوا معجزاته وخوارقه الحسية . . . ولكنهم يشاهدون ويزيد إدراكهم جيل بعد جيل ويوما بعد يوما بمدى إعجاز ما يحويه القرآن الكريم من حقائق كونية وعلمية ومعرفة ومنهج معجز وهداية

الإنسانية جمعاء على مر العصور وحتى قيام الساعة لقد أراد الله تبارك وتعالى أن يشعر الناس بأن رسولهم بشر مثلهم حقا وصدقا كما جاء في سورة الكهف عانى مما يعانون منه وتألم مما تألموا منه وخاض مثلهم تجارب الحياة المتعددة المتباينة بحلوها ومرها ثم كان سلوكه وتصرفه وأقواله إزاء ذلك كله قدوة وأسوة حسنة للإنسانية جمعاء يقول الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٢١) ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ذلك ليس له من سلطان على الناس ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ وإنما الأمر إليهم كي يكون اهتداؤهم نابعا من قدراتهم البشرية وعن اقتناعهم الذاتي، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير.. فيكون اهتداؤهم إيمانا ليست فيه شائبة استهواء أو توريط أو اقتناص بوسائل هي بالسحرة أشبه وإلى وسائلهم أقرب.. وما توانى العرب في مطالبته بإخراج ما ظنوه في جعبة كل صاحب نبوة وما أرادوا بذلك إلا الملهاة !!

يقول عز وجل في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (سورة يونس ٢٠).

وفي سورة الأنعام: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (سورة الأنعام ٥٩).

وفي سورة الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف ١٨٨) فلم يكن يعلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنباء الغيب إلا ما كان يوحى به إليه فقط من العلي القدير وسبحانه وتعالى يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (سورة يوسف ١٠٢). ﴿ذَلِكَ مِنْ

أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة آل عمران ٤٤) . ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (سورة هود ١٠٠) .

نعم لو كان يعلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغيب دون ما يوحى به إليه أو ينبئه الله به ، لاستكثر من الخير وما مسه السوء كما ورد في سورة الأعراف . . حقا ! بل وتخطف الموت فلذات أكباده ليكون ذلك برهانا على أن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم . . فتسقط دعوى الناس في التقصير عن الاهتداء به فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر ، لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول فأين هم منه ؟ وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به ؟ بل هو مثلكم لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة ، ففيه قدوة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء . . وفى رأينا أن تأييد دعوة حق فقط بخارقة غير طبيعية أو بمعجزة خاطفة الإبصار مسألة لا تستساغ إلا في حالات انحطاط العقل البشرى . . . بالإضافة إلى أن هذه المعجزة إن لم يصاحبها دليل على ثبوتها وديموتها فإنها تترك أثرها فقط على الجيل الذى شاهدها فهى أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده . . . وهو حرى أن يطلبه ويلح في طلبه لو أوتى الرشد كذلك العقل السوى الراجح يجد امتهانا له أن يؤمن بدعوى من أجل خارقة أو معجزة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى ، فإن كان دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها فالحقيقة آية نفسها ولا مراء في ذلك . . . ولا شك أن إحياء ميت أو إبصار أعمى أو غير ذلك من جلائل الأحداث لها قيمتها في حد ذاتها ، ولكنها بغير قيمة إطلاقا إذا أريد بها إثبات أن ٢ + ٢ = ٧ أو ما إلى ذلك من المسائل العقلية لهذا كان لا بد للعقل البشرى في طور رشده ، أن تأتيه

الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف، يحترم فطرته وبداهته، وذلك برهان على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة للطور الطبيعى للبشرية تاريخا ونضوجا ورشدا.

لذا يؤكد الله عز وجل في قرآنه المجيد على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بساحر ولا بكاهن أو مجنون، وعلى أن المعجزة الخارقة لا تفيد في إقناع مكابر وفى ذلك جاء قوله تبارك وتعالى بسورة الحجر: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (سورة الحجر ١١ - ١٥) ولا ريب أن من يمعن النظر في الآيات التالية من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار والتاكيد على بشرية الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن آيته الحق هى صدق رسالته بما نزل من وحى عليه وذلك حسبها من سند، وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين، فما شاء العلى القدير الرحمن الرحيم أن يكون الرسول ملكا من الملائكة، حتى تكون بشرية هذا الرسول قدوة وحجة على الناس يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ

خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإسراء ٩٠ - ٩٦) يقول الشيخ الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه (الإسلام والنصرانية):

(فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتبر على شيء أكثر من الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية... وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقادات بالنبوات... فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل، ولا من الكتب المنزلة فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله، وبإنه يجوزأن ينزل كتابا أو يرسل رسولا) نعم إن الحقيقة باقية والبشر زائلون. والرسالة هى الباقية وما هى بمتوقفة في شيء بعد بروزها على بقاء هذا الرسول...

يقول عز من قائل تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران ١٤٤).

إنها لحقيقة ولكن كان لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول المصطفى، وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج من مستوى البشر الفانين من أن صحابيا جليلا مثل عمر بن الخطاب على علو قدره ورجاحة عقله وقوة إيمانه وهو من هو من الإسلام ورسوله أبى أن يصدق أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل به طائف الموت، وأشهر سيفه ليقاتل به كل من ادعى ذلك، ولولا أن أبا بكر الصديق تلى عليه وعلى الناس تلك الآية من سورة آل عمرآن لحدث ما لا تحمد عقباه... نعم.... إن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها... عاش الرسول أو مات أو قتل... وهذا إذن هو مكان النبوة

الحق في ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية الذى لم يفهمه جيدا، تابعوا العقائد السابقة، ففى رسالة الإسلام الخاتمة التى نادى وبشر وأنذر بها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتنزه الله عز وجل سبحانه وتعالى الواحد الأحد العلى القدير، عن كل وصف أو تشبيه أو شريك ليس كمثله شيء... جل وعلا ورسله وأنبياؤه ليسوا كهانا ولا ملائكة ولا سحرة. وإنما هم بشر يأتيهم الوحى من خالقهم العظيم بالروح الأمين وليس عليهم إلا البلاغ المبين. وقد يتساءل البعض: هل تتكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب؟ والجواب المنطقى هو لا.... لأنه أصبح لا حاجة للبشرية لذلك التكرار فإن طور الأسلوب العقلى المجرد هو آخر أطوار البشرية فمن تفتح عقله وبلغ رشده فطائره في عنقه وعليه بعد ذلك أن يعمل عقله وفكره، وقد تسلم قيادة نفسه، كما أن الرسالة خصوصية هى إتمام ما سبق، ومتابعة البشر في أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح فما هى الخصوصية التى يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام لقد تمت فكرة الوحدانية الأحدية للعلى القدير سبحانه وتعالى، وتم خطاب العقل، وتم البلاغ إلى الناس كافة أحمرهم وأسودهم... وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه ودنياه... وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور فكل رسالة بعد ذلك قول معاد، ليس فيه جديد يستفاد.... يقول عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا﴾ (سورة المائدة ٣)

وبسبب من طبيعة الرسالة ومن الحاجة الماسة الطبيعية للناس إليها كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات.

*****